رائف زريق*

الاستعلاء والتوق الإسرائيلي إلى حياة طبيعية!**

يسعى هذا النص لتعرية فكرة الطبيعي وغير الطبيعي لدى الصهيونية التي تجعل من كل رأي أو فكرة أو عمل لا يتلاءم مع مصلحتها أمراً طبيعياً، وكل ممارسة خطأً من طرف الصهيونية مبررة عبر الزعم أن النية لم تكن ارتكاب الخطأ. وإذ يعتبر النص أن التبريرية هذه هي استعلاء في حقيقة الأمر، فإنه يخلص إلى نتيجة طبيعية فحواها أن: "الاستعلاء والطبيعية لا يلتقيان."

هل هناك أمر عادي أكثر من التوق إلى الطبيعي؟ وهل هناك ما هو أكثر طبيعية من الحياة العادية، فتنهض صباحاً لتجد أن سقف البيت لا يزال في مكانه، وأن عدد أفراد الأسرة لم ينقص خلال نومك؟

العادي حاجة حتى من دون هذه الأسئلة الدرامية. أن تجد الكتاب حيث وضعته، وأن تنام على الوسادة نفسها، وأن تستطيع إدارة محرّك سيارتك في صباح شتوي ماطر.

رافق التوق إلى العادي الصهيونية منذ ولادتها، فقد سعى آباء الصهيونية لـ "تطبيع" الحياة اليهودية، في مواجهة الحياة غير العادية في نهاية القرن التاسع عشر التي عانى جرّاءها اليهود بسبب ارتفاع منسوب اللاسامية.

وللوهلة الأولى فإن المطلب أن يكون اليهود كبقية شعوب العالم يبدو بسيطاً. والنصوص المؤسسة للصهيونية، في غمرة انشغالها بإنقاذ اليهود، تنظر إلى أوروبا وليس إلى العرب؛ تنظر إلى الوراء وليس إلى الأمام، ولوهلة أولى، يبدو أن الصهيونية لم تطلب كثيراً، فقد يكون أنها لم تكن تنوي استعباد شعب آخر، ولم تخطط لتحويل مئات الآلاف إلى لاجئين، ولم تتقصد بناء نظام قائم على التمييز.

لكن حتى لو افترضنا جدلاً أن الصهيونية لم تخطط الطرد في سنة ١٩٤٨، فإنه حدث في تلك السنة، وحتى إن لم تخطط لحرب سنة ١٩٦٧ واحتلال ما تبقّى

* باحث وكاتب فلسطيني.

** نُشر هذا النص بالعبرية في صحيفة "هآرتس" بتاريخ ٢٠١٤/٩/٥، وترجمه الكاتب إلى العربية.

من فلسطين، فقد قامت الحرب بمبادرتها، واحتلت ما تبقّى من فلسطين، ووضعت مئات الآلاف تحت الحكم العسكري. وحتى إن لم يكن مخططها إقامة نظام تمييزي ضد مواطنيها العرب، فإنها ميّزت وتميّز، وحتى إن لم تكن تنوي قتل مئات المدنيين في غزة كما تقول، فإنها في واقع الحال قتلت وقتلت.

قد يكون عالم السياسة مختلفاً عن عالم الأخلاق. ففي السياسية على عكس الأخلاق، وفي المسارات التاريخية بخلاف الأحداث العينية المتفرقة، وضمن تحولات تشارك فيها الشعوب برمتها وليس أفراد محددون، فإن دور النيات وأهميتها يبدوان أمراً هامشياً وثانوياً. فالنيات قد تكون مضلِّلة ومخادعة. ستار من الدخان الكثيف يؤهل كل مَن يعتقد أنه "ضحية" لأن يغمض عينيه، ويكتفي بالنظر إلى الداخل نحو قلبه بدلاً من أن ينظر إلى العالم حوله. وعندما يتيقن الناظر من أن نياته حسنة، والقلب في حالة سلام مع ذاته، فإن كل شيء سيبدو مسموحاً ومتاحاً، الأمر الذي يؤهله لأن يقوم بأمور فظيعة ومخيفة، وأن يشعر في الوقت نفسه بأنه محق، على اعتبار أنه هو الضحية في نهاية الأمر.

لقد قدّم جابوتنسكي في مقالته: "الجدار الحديدي"، أفضل تعبير عن هذا الافتراض. إذ كتب موجهاً الكلام إلى رفاقه ما معناه: إمّا أن يكون الهدف الذي تسعى الصهيونية لتحقيقه عادلاً، وإما لا يكون كذلك، وإذا كانت أهداف الصهيونية عادلة فعلينا ألاّ نتردد أمام الوسائل التي يجب استخدامها من أجل تحقيق هذه الأهداف، حتى لو اقترن ذلك باستخدام العنف ضد الفلسطينيين.

وفي اللحظة التي بدأت الصهيونية مسيرتها على هذه السكة، بات لزاماً عليها الوصول إلى محطتها النهائية، فمنذ لحظة بداية مشروعها كان عليها ألاّ تتردد في منتصف الطريق أمام العنف اللازم لتحقيقها.

ولم يخطر في بال جابوتنسكي أن يطرح على نفسه السؤال بشكل معاكس: لو كانوا على دراية أن تحقيق المشروع الصهيوني يستلزم هذا الكم من الضحايا، عرباً ويهوداً، هل كان في وسعهم الاعتقاد أن المشروع الصهيوني عادل؟ كما لم يخطر في ذهنه أو في أذهان غيره من الصهيونيين حقيقة أن نيات الصهيونية في عدم إيذاء العرب، لم تغيّر شيئاً من الحقيقة التي تقول عكس ذلك، وأن هذه النيات لن تخفف شيئاً من معاناة مئات آلاف المشردين واللاجئين والجرحى، هذا إذا لم نتكلم عن القتلى.

هناك مفارقة في الصهيونية، فهي من ناحية أولى، ولدت بصفتها أيديولوجيا تطمح إلى العمل والإنجاز والحركة، وفي مركزها تقف فكرة العزم والإرادة والرغبة في البدء من جديد من أجل تغيير العالم والإمسك بحركة التاريخ، لكنها من ناحية أُخرى، وعندما تصل إلى كراهية اليهود واللاسامية، فإنها تميل إلى تبني رؤية ثابتة وغير متحركة للتاريخ، وتعتبر التغيير مستحيلاً. وبدأ ذلك في نظرتها إلى أوروبا اللاسامية التي من المتعذر تغييرها، ثم جاء هؤلاء العرب والفلسطينيون الذين لا يمكن تغييرهم، ومن المستحيل التحدث إليهم.

الإرادة والمبادرة متوفرتان لدى اليهودي الصهيوني عندما يدور الحديث عن الحرب، لكن عندما نصل إلى البحث عن حل وسط تاريخي يصير العالم ثابتاً وغير قابل للتغيير. فالفشل في الحرب يتحمل اليهودي مسؤوليته، أمّا الفشل في السلام والمصالحة فهو من مسؤولية العرب. وضمن هذا المنطق

فإن اليهودي الصهيوني هو بطل حرب فُرضت عليه ولم يختر خوضها أصلاً، وبذا صار بطلاً في مسرحية لم يكتب نصها وقام آخرون بإخراجها.

"واجبنا أن ننتصر في الحرب، وواجبهم أن يقيموا السلام معنا".. بهذا المعنى تصير الصهيونية التي اعتبرت نفسها حركة تمرد على التاريخ، وهي كذلك بشكل جزئي، عبدة للتاريخ الذي تمردت عليه.

إن قدرة الصهيونية على إنتاج حالة التعاضد والتماسك بينها وبين يهود العالم، مرهونة بدرجة معينة باللاسامية وكراهية اليهود، وكذلك بالمواجهة المستمرة مع المحيط. أي أن هذا التماسك مشروط بحياة غير عادية وغير طبيعية. فبعدما كان هدف الصهيونية تطبيع الحياة اليهودية، صار نجاحها مشروطاً بالمحافظة على حياة لا طبيعية. فصار شرط نجاحها هو شرط فشلها، الأمر الذي يجعلها في حالة من اللااستقرار والتوتر المستمرين.

لقد اعتقدت الصهيونية في بداياتها أنها تعبير عن الإرادة، لكنها وصلت اليوم إلى نقطة فقدان هذه الإرادة، وما بدا كأنه محرّك للتاريخ ينتهي اليوم ليكون مجرد لعبة في يد التاريخ.

هذا كله يؤدي بالصهيونية إلى نوع من الانسحاب من العالم والتنكر للأفعال ونتائج الأفعال التي تقوم بها. ولنأخذ على سبيل المثال الطريقة التي يتم فيها الكلام على الإصابات في صفوف المدنيين في حرب غزة الأخيرة.

يقوم هذا الكلام على نظرية "الأثر المضاعف" الذي يميّز بين النتائج المرجوة من أي عمل عسكري، وتلك غير المرجوة حتى إن كانت متوقعة.

فإطلاق النار، على سبيل المثال، يؤدي إلى نتيجتين: الأولى مباشرة ويرغب فيها الجيش الإسرائيلي وهي إصابة المقاتلين، والثانية متوقعة، وإن لم يكن مرغوباً فيها، وهي إيقاع الإصابات في صفوف المدنيين الفلسطينيين.

ويقوم التفريق بين النتيجتين، أي الأضرار المرجوة والأضرار العَرَضية، على فرضية أنه لم يكن هناك نية لإحداث الأضرار العَرَضية، الأمر الذي يعني أن الفاعل ليس مسؤولاً عن فعلته، بل إنه ينأى بنفسه عن نتائجها، فقط لأن نياته كانت غير ذلك، فيعفي نفسه من المسؤولية، كأنه ليس الفاعل، مقيماً سوراً واقياً بينه وبين نتائج أفعاله. وعلى الرغم من وجود حالات معينة يكون فيها تلافي هذا المقترب غير ممكن، فإن مخاطره واضحة للعيان. فالفاعل يعتبر نفسه كأنه لم يقم بفعلته، وبالتالي تصبح النتائج ضرباً من القضاء والقدر، وهنا ينسحب الفاعل إلى عملية تبرير ذاتية تجعله منفصلاً عن العالم ومنسلخاً عنه، ويتوقف عن النظر إلى نفسه كلاعب سياسي يستطيع أن يقرر مستقبل العالم.

من الصعب الاقتناع بأن الأضرار "العَرَضية غير المباشرة" كإصابة المدنيين هي مجرد أضرار "مفروضة" وغير مرغوب فيها، وثمن لا بدّ من دفعه. ففي ظل أجواء ملبدة بالتحريض على ضرورة إبادة العدو والقضاء الجسدي عليه، ومع انتشار شعار "الموت للعرب"، نمتلك جميع الأسباب للاعتقاد أن الحرب الأخيرة في غزة، كانت حرباً شاملة ضد شعب بأكمله، وأن أضرارها كان مرغوباً فيها.

إن الإفراط في التعامل مع النيات وحدها هو نوع من قلة المسؤولية وخداع للذات. والأمر (ذاته) ينسحب أيضاً على مسألة التوق إلى الطبيعي والحياة العادية.

فالكلام عن الطبيعي ربما يؤدي بالأفراد إلى التعامل مع بعض الأمور كأنها معطيات مسبقة من دون أخذ السياقات السياسية والتاريخية والجغرافية في الاعتبار. فالحق بثلاث وجبات من الطعام يومياً حق طبيعي ومقبول بشكل ضمني، لكن عندما يتعلق الأمر بمجتمع يعاني المجاعة، فإن الإصرار على ممارسة هذا الحق سيعني الحكم بالموت على أفراد المجتمع الجائعين، وبالتالي فمن "الطبيعي" في حالة كهذه الاكتفاء بوجبة واحدة. كذلك فإن الممارسة "العادية" للجنس قد تتحول إلى جريمة إذا كان أحد الشريكين مصاباً بمرض جنسي ولم يخبر شريكه.

لا يكون الطبيعي عادياً والعادي طبيعياً إلاّ في حالة واحدة وهي أن يضمن هذا الأمر، في الوقت نفسه، حياة طبيعية للآخر. إن تطبيع حياة طرف من دون تطبيع حياة الطرف الآخر ليس سوى تعبير عن الاستعلاء والشعور بالتفوق والعنصرية. إن مطلب الإسرائيليين العيشَ بسلام وطمأنينة بينما يعيش الفلسطينيون تحت الاحتلال، أو مطلبهم الاستمتاعَ بالماء بينما يعيش شعب آخر، يقع تحت احتلالهم، في العطش، أو قيامهم ببناء البيوت لليهود في حين تهدم دولتهم بيوت الفلسطينيين، ليست مطالب طبيعية. إنها محاولات لتحويل الاستعلاء والعنصرية والشعور بالتفوق إلى أمور طبيعية.

والاستعلاء والطبيعية لا يلتقيان. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(القضية الفلسطينية / آفاق المستقبل ـ ٣)

السيطرة على الغذاء / السيطرة على الشعب

آن غوف ورامي زريق

١١٠ صفحات ٨ دولارات